الفصل الثالث

لطف الله بأنبيائه ورسله

لطف الله بإبراهيم الخليل عليه السلام

ذلكم النبي الكريم إمام الحنفاء وأبو الأنبياء، وأول من بني لله بيتًا، وقد جعل الله النبوة في ذريته من بعده، فلم يرسل نبي بعده، إلا وهو من نسله، وكم في حياة هذا النبي العظيم من عبرٍ وآيات، وفوائد وعظات وأُسوة وقُدوة للخلق من بعده، فقد قام بدين الله كله، وكان للناس إمامًا وكان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين.

ونأخذ من حياته هذه الثلاث مواقف نذكر بها عظيم لطف الله به:

الموقف الأول:

إنه دعا قومه التوحيد وترك عبادة الأصنام والحجارة ولم يكن على وجه الأرض موحد غيره فما كان من قومه إلا التكذيب والإعراض والصد والند، والمكر والكيد، جاء إبراهيم إلى أصنامهم، في وقت غياب قومه وانشغالهم فتبرَّ إبراهيم عليه السلام الأصنام ودمرها وكسرها بمعوله، وترك كبير الأصنام فلما جاء قومه من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم فزعوا، وغضبوا وقالوا بمنتهى العنف والغيظ: من فعل هذا بآلهتنا؟! قال ربنا سبحانه وتعالى في حكاية هذا الحديث ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥٩-٦٣).

ولكن أني للأصنام والحجارة أن تجيب؟ أنى لها أن تعقل وتفهم وتنفع أو تضر؟!، ولما عجز الكافرون عن الحجة، ووجدوا أنفسهم قد دُحروا وهُزموا أمام هذا البيان الناصع من إبراهيم عليه السلام، لما وجدوا ذلك لجأوا إلى التعذيب، لجأوا إلى حيلة الطُّغاة، والمجرمين في كل زمن، إذا شوهوا الحق وحاربوه ثم وجدوا حجج الحق تعلوهم فعلوا ذلك.

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء:٦٦-٧٠).

قال الحافظ ابن كثير عليه رحمة الحكيم الخبير في «كتابه التفسير»: لما دحضت حجتهم وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم. ثم جعلوه في جوبة من الأرض وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوا إبراهيم قال حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد

ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)[1].

وقال سعيد بن جبير ويروى عن ابن عباس أيضا قال: لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أؤمر بالمطر فأرسله ؟ قال فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال وسلامًا، لآذى إبراهيم بردها[2]، فإذا كان من طبيعة النار أن تحرق وتدمر فإنها بأمر الله وإذنه وقدرته تكون بردًا وسلامًا، لا إحراق ولا تدمير،ولا حرارة إن الله جل جلاله الذي قال للنار كوني حارقة، هو الذي قال لها كوني بردًا وسلامًا. ذلك لنعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه لطيف بأوليائه، قريب منهم إذا ابتلوا يثبتهم وينصرهم، ويحفظهم من عدوهم، فإن الله لا يذر أولياءه أبدًا، ولا يغفل عن دعائهم وتضرعهم قط، فكم لله من لطف خفي يوصلهم بهذه البلاءات إلى أعظم وأعلى الدرجات، فسبحانه وبحمده.

فلا تحزن أيها المسلم إذا وقع بك بلاء مهما كان عظيمًا ومهما كان شديدًا قريبك قادر على رفعه في أقل من لحظة، ولكن تضرع إليه، استغفره، استغث به، تذلل بين يديه، فإن فرجه قريب، ورحمته قريب من المحسنين.

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٧٧).

(2) «المصباح المنير في تهذيب تفسير بن كثير» (ص: ٨٧٠).

الموقف الثاني:

مكث إبراهيم الخليل دهرًا طويلًا وعمرًا مديدًا لا يولد له، حتى يئست امرأته من الإنجاب واستبعدت جدًا أن يحصل إنجاب وقد صارت عجوزًا وصار زوجها شيخًا، ولكن الله العليم الحكيم يقدر برحمته أن يهب إبراهيم ذرية طيبة وولد له ولدان ولدت هاجر إسماعيل وولدت سارة إسحاق بعد ذلك ولما كبر إسماعيل وبلغ السعي مع والده وأصبح قرة عين لأبيه يزداد حبه له يومًا بعد يوم أراد الله جلا وعلا أن يمتن على إبراهيم بمنة أعلى من منة الولد وكرامة أسمى وأجل من كرامة الأبوة، أراد الله أن يصل إبراهيم إلى مرتبة الخلة التي لم يصل إليها بشر قط إلا إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم.

فوقع البلاء لترتفع الدرجة وتعظم المكانة لإبراهيم عند الله، فرأى في المنام أنه يذبح ولده، تخيل!! الولد الذي طالما انتظره، الولد الذي صار فلذة كبد لأبيه، الولد الذي رزقه على الكبر يؤمر ليس فقط بالصبر على موته إذا مات، وليس فقط أن يشاهد لحظة قتله، بل يؤمر أن يذبح ولده بيده! يا الله! يا له من بلاء، ولما كان حب الله أعلى وهو الأصل في قلب إبراهيم لم يكن هناك بد من تنفيذ أمر الله فيؤثر إبراهيم أمر الله على هواه، وعلى حبه لولده وعلى طباعه البشرية، التي فطر عليها، ويستسلم استسلاما عظيما عجيبا مدهشا لأمر ربه جل وعلا بعد الاستسلام الكامل والإذعان التام والخضوع المطلق لأمر الله عز وجل، يأتي الفرج ويبدو لطف الله بإبراهيم، ويكشف الله البلاء، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ

صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ (الصافات: ١٠١-١٠٩).

أرأيتم قلبًا أبويًا ... يتقبل أمرًا بأباه

أرأيتم ابنًا يتلقى ... أمرًا بالذبح ويرضاه

ويجيب الابن بلا فزعٍ ... افعل ما تؤمر أبتاه

لن أعصى أمرَ الله ... من يعصى يومًا مولاه

واستل الوالد سكينًا ... واستسلم ابن لرداه

ألقاه برفق لجبين ... كي لا تتلقى عيناه

وتنهر الكون خراعات ... ودعاء يقبله الله

تتفرع للرب الأعلى ... أرض وسماء وحياه

ويجيب الحق ورحمته ... سبقت في فضل عطاياه

صدقت الرؤيا لا تحزن ... يا إبراهيم قديناه

الموقف الثالث:

لطف الله بإبراهيم وزوجه سارة بأرض مصر، ويتمثل هذا الموقف في حفظ الله لإبراهيم في أهله ودفعه السوء عنهم، وكشفه الكرب عن إبراهيم وزوجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء، فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي، ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن ليس على الأرض من مؤمن غيري وغيرك،

فأرسل بها إليه، فقام إليها، فقامت فتوضأت وصلّت، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك، وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر، فغط حتى ركض برجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته، فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأت وأخذت تصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر فغط حتى ركض برجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته، فأرسل في الثانية أو في الثالثة: فقال والله ما أرسلتم إلي إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها آجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر، وأخدم وليدة[1].

(١) رواه البخاري برقم (٧/ ٢٢) وفي مواضع أخرى.

لطف الله بإسماعيل عليه السلام وأمه

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعها هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه: تريد نفسها، ثم تسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت لو كان عندك

غواث، فإذا هي بالملك عند زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا، قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأو طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جاريًا أو جاريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا» قال: «وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم»[1]..الحديث.

تأمل أخي هذا المشهد العجيب الذي يفيض بالإيمان ويتلألأ باليقين والاستسلام لأمر الملك أي أسرة تلك الأسرة العظيمة التي رباها إبراهيم وغرس فيها هذه المعاني الإيمانية السامقة الشاهقة الرائقة، يا لها من مواقف، إبراهيم يترك ولده وامرأته بواد غير ذي زرع ولا إنس ولا جوار، لا طعام ولا ماء، لا رفقة ولا خدم، إنما هي صحراء

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٦٤).

ملتهبة تتوهج رمالها تحت لفح الشمس المحرقة، ويزمجر ليلها بزمهرير الصحراء القارس، المخيف وظلامها القاتم، الموحش تخيل امرأة ومعها رضيع في ذلك المكان كيف تعيش؟ كيف تعالج ولدها إذا مرض؟ كيف تطعمه إذا جاع وانتهى الطعام، أنى لها أن تسقيه إذا نفد الماء، كل هذا لم يؤرقها ولم يجعلها تتردد لحظة في قبول أمر الله وتقديره وإنما تقول لزوجها المبارك: آلله أمرك بهذا؟! فيشير برأسه أي نعم، فقالت: إذًا لن يضيعنا، وفي الرواية الأخرى قالت: رضيت بالله، وبعد أن يعتصرها الألم ويشتد بها الكرب، ويصارع وليدها الجوع والعطش، يهاجمه شبح الموت، وتظل هي تبحث بكل سبيل عن ماء لتنقذ ولدها، من براثن موت قريب، وإذ بفرج الله يأتي وبلطف الله يبدو ويظهر، ويلمع بارق الأمل وتنقشع سحابة الغم والكرب، وتتفجر عين ماء معين، لذة للشاربين، ورثاء للظامئين، وطعمة للجائعين، وبلسمًا ورواء يسكن به الألم والأنين، وتبدأ في هذه البقعة صفحة حياة لا تطوى، وعلم دين لا يمحى، فتكون تلك البقعة هي أقدس بقعة وأطهر بلد وأعظم مكان على وجه الأرض، ويبنى بها بيت الله، فتهوى إليه أفئدة المؤمنين، وتشتاق إليه قلوب المحبين يأتون من كل فج عميق وطريق بعيد، رجالاً وركبانًا، شبابًا وشيوخًا، فتصير لمكة في التاريخ مكانة خلود، تطهر بزيارتها، القلوب، وتغفر الذنوب، فالحمد لله كم له من حكمة بالغة، وحجة دامغة، ونعمة سابغة، وما أعظم لطفه بعباده، وما أجّل رحمته بهم!! سبحانه وبحمده.

لطف الله بموسى عليه السلام

أكثر القصص تكرارًا في القرآن الكريم وتفصيلاً، وسردًا في محكم البيان، قصة موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ذلكم النبي الكريم الذي واجه أعتى أمة وكافح أكبر طاغوت، على وجه الأرض، هذا هو النبي الذي ألقى الله عليه محبة منه، وتشابهت سيرته إلى حد كبير بسيرة حتى تأسى به رسول الله ﷺ فقال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

الموقف الأول: لطف الله بموسى في مهده:

انظر إلى لطف الله به، عدوه يريد قتله، وكم قتل من الأطفال ليقتل موسى ولكنه لم يحدث، ولما ولد موسى رباه الله في بيت عدوه وأصبح الجنود الذين يبحثون عنه ليقتلوه، أصبحوا هم حماته وحراسه، وبعد أن بلغ الكرب بأمه مداه، وكادت أن تصرخ في الناس وتقول ولدي، فرج الله كربها وساق إليها ولدها ترضعه، وتنال على ذاك أجرة، فكم لله من لُطفٍ خفي! تأمل وتدبر هذه الآيات العظيمة قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٦٤).

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(القصص: ٧-١٣)

قال الحافظ بن كثير عليه رحمة الحكيم الخبير في كتاب «التفسير»: ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنوا إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم بها رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل[1]، يدُرْن على النساء، فمن رأينها ولدت أحصين اسمها، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا، دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة[2]، فقتلوه، ومضوا قبحهم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، فلما ضاقت به ذرعًا ألهمت في سرها وألقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧). وذلك أنه

---

(1) القوابل: هن الدايات اللاتي يقمن بتوليد النساء.

(2) الشفار المرهفة أي: السكاكين الحادة القاطعة.

كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته في ذلك التابوت في البحر، وذهلت[1] عن أن تربطه فذهب مع الماء، واحتمله حتى مرَّ به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق، وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ (القصص: ٨). فقيضهم الله لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنًا[2]، هكذا لطف الله بموسى فأنجاه من الذبح ورده إلى أمه وساقه إلى حجر عدوه ليربيه بيده وبإله وليسخر له نعيم قصره وخدمه.

الموقف الثاني: لطف الله بموسى في صراعه مع عدوه:

الأحداث والمشاهد التي لطف الله فيها بصفيه وكليمه موسى كثيرة، فمنها إنجاؤه من القوم الظالمين، ووصوله إلى أرض مدين ومكوثه عند الرجل الصالح عشر سنين، وزواجه بابنته، ومنها أن برأه الله مما اتهمه له بنوا إسرائيل حيث اتهموه بأنه آدر، فبرأه الله مما قالوا، ومنها أن برأه الله من تلك البغي التي سلطها عليه قارون لتتهمه زورا، وبهتانا ومنها إعطاء الله له المعجزات كالعصا واليد وغير ذلك ليكون نصرة له

---

(١) قلت: هذا قول ابن كثير وقد خالفه غيره وظاهر القرآن مع من قال بأنها وضعته بإرادتها ولم تذهل عنه إذ أوحى الله إليها بذلك والله أعلم.

(2) «المصباح المنير» (٣/ ١٠).

على عدوه، ومنها معية الله له ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه: ٤٦).

ومنها هذا المشهد الذي نختم به الحديث عن موسى ﷺ أنه لما خرج من مصر متجها ببني إسرائيل نحو البحر الأحمر هاربًا من بطش فرعون وظلمه وطغيانه واقتربوا من البحر وصاروا يبصرونه ويرونه وعن أيمانهم جبالٌ واقتربوا من البحر وكذلك اليسار التفتوا فإذا فرعون بجنوده وجيشه يسير من ورائهم، فصرخ ضعفاء الإيمان: يا موسى إنا لمدركون وليس أمامنا إلا البحر، فإلى أين نتجه وكيف ننجو من المستحيل جدًا أن ننجو؟! إنه من بطش فرعون ولكن موسى بمنتهى الثبات واليقين ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢).

لم يكن موسى يعرف كيف سينجو وكيف سينكشف هذا الكرب ولكن الذي يدريه ويؤمن به أن الله مع أوليائه لطيف بهم رحيم بهم فمتى فرج الله كربه بمعجزة خالدة باقية وأهلك عدوه وطويت صفحة الصراع المحموم بين باطل فرعون اللعين وبين الحق الذي جاء بموسى الكليم، ما الذي جرى وما الذي حدث وكيف نجى موسى ومن معه وهلك فرعون ومن معه اسمع إلى الجواب المبين من رب العالمين هو أصدق القائلين قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ (الشعراء: ٦١-٦٦).

لطف الله بنبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ

هذا النبي الكريم مضرب الأمثال في الصبر على البلاء والرضا بالقضاء والقضاء والاستسلام لحكم الله عز وجل، جعله الله قدوة وأسوة للناس في الصبر والرضا وامتدحه الله جلا وعلا فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤). نزل به البلاء واشتد به المرض وأحاط به الفقر وهجره القريب والبعيد ولم يثبت معه إلا زوجته التقية والوفية، يقول الحافظ بن حجر عليه رحمة الله تعالى: وأصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وصححه ابن حبان والحاكم من طريق نافع ابن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: "أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه فكانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما للآخر: لقد أذنبت أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لكشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، فحزن، ودعا الله حينئذ فخرج لحاجته وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ ابطأت عليه فأوحى الله إليه أن اركض برجلك فضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها فرجع صحيحًا، فجاءت امرأته فلم تعرفه فسألته عن أيوب فقال إني أنا هو، وكان له أندران أحدهما للقمح والآخر للشعير فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض"[1].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ ووصف ربه بصفته ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه تأدبًا معه وتوقيرًا معه، فهو نموذج للعبد

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضربه تضرب به الأمثال في جميع الإعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه اطمئنانا إلى علمه بالحال، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة، وكانت نهاية البلاء ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ (الأنبياء: ٨٤).

ثم رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب الله مثليهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادًا ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فكل نعمة هي رحمة من عند الله ومنه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ تذكرهم بالله وبلائه ورحمته في البلاء وبعد البلاء، إن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها، وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار، والإشارة (للعابدين) بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان.

والأمر جد ولا لعب، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دعوى يدعيها من يشاء ولابد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء[1].

ومن تمام لطف الله بأيوب أن صب عليه الرزق صبًا ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**بينما كان أيوب يغتسل عريانًا**

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٩٢).

خر عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أغنك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي الحديث جواز الحرص على الإستكثار من الحلال في حق لمن وثق من نفسه بالشكر عليه وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر[(٢)].

ذلكم يسر من بعد عسر وفرج من بعد شدة وبيان لعاقبة الصبر وجميل أثره وجليل أجره فاصبر صبرا جميلًا واستعن بالله يعنك ومن يتصبر يصبره الله.

ألا فاصبر على الحدث الجليل ... وداوِ جواك بالصبر الجميل

ولا تظنن بربك ظن سوءٍ ... فإن الله أولى بالجميل

فإن العسر يتبعه يسر ... وقول الله أصدق كل قيل

فلو أن العقول تجر رزقًا ... لكان الرزق عند ذوي العقولِ

فكم من مؤمن قد جاع يومًا ... سيروى من رحيق السلسبيل

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٣٩١).

(2) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

٤- لطف الله بنبيه يوسف عليه السلام

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ فقال: أتقاهم لله، قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله[1].

هذا النبي الكريم قصته أحسن القصص، وفي حياته أنفع عظات وعبر، فصل الله قصته في سورة واحدة تلاوتها تأخذ الألباب، وتسبي العقول، وتأسر القلوب، وتمتع النفوس، وتنجذب لها الأسماع، وتتلذذ بتلاوتها الأرواح، وتتألق بترتيلها الألسنة ولست هنا بصدد سرد أحداثها، وبيان جزئياتها؛ وإنما نريد أن نأخذ بعض الشواهد التي هي محل حديثنا، وذلك ببيان لطف الله بهذا النبي العظيم حيث إنه استشعر جليل هذا اللطف، وجميل تلك الرعاية الربانية، وأثنى على ربه بذلك، فقال في آخر قصته كما قال الله عنه ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

واسمحوا لي إخوتي أن نستمتع هذه اللحظات، ونقضي هذه الدقائق المعدودات نقلب بأيدينا صفحات، ونرتقي إلى العلياء بقلوبنا درجات، نطالع حكمة الله في لطفه، ورحمته في حفظه، وقربه من أوليائه، هيا لتحلق قلوبنا في سماء الطهر، ونحوم حول ينابيع الحكمة، فرحلتنا رحلة المحبين، وسبيلنا سبيل من امتلأ قلبه بحب الدين، وإليكم هذه الوقفات مع قصة سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم الذي فيها عظيم الله به.

١- نجاته من القتل:

تأججت نيران الكيد في قلوب إخوة يوسف فراحوا يدبرون ويخططون لمحوه من حياة أبيه وتآمروا فيما بينهم فقالوا ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥٣) ومسلم رقم (٢٥٢٦).

أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:٩). ولكن الله صرفهم عن ذلك بمقالة أحدهم ولعله أرفقهم به وأبرهم به ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (يوسف:١٠).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عن قتله بمقالة أحدهم وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب[1].

٢- إخراجه من الجب:

ذهب إخوة يوسف به إلى الصحراء ونفذوا فيه مؤامرتهم النكراء، وجريمتهم الشنعاء فألقوه في البئر، وطرحوه فيه، فكان لا يستطيع الخروج منه وليس له أنيس، والبئر عميق، والصحراء سكون، وفي الليل ظلمات، وجوع وبرد، شدة وكرب، وبعد عن الوالدين، وفي هذه الصحراء الشاسعة الواسعة ألقوه في بئر صغير منها يا له من كرب!! ويا لها من محنة إن ما هو في إنما هو محنة سوف تزول، وشدة سوف تنتهي وتنقضي وسوف يعيش ويذكر أخوه بهذا المرقف يومًا ما فلن ينفذ إلا حكم الله ولن تكون إلا مشيته وكن يمضي في خلق الله إلا أمر الله.

إن كان إخوته لم يرحموه لم يرفقوا به ويشفقوا عليه فإن الله هو أرحم الراحمين، لا يخذل أولياءه، ولا يتخلى عنهم، لقد استدرجوا يوسف وأخذوه من كنف أبيه بعد ما احتالوا لأخذه وإلحاحهم على أبيهم وبعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ (يوسف:١٥). أي: إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل البئر، وقد

---

(١) «تفسير القرآن العظيم».

أخذوه من عند أبيه وهم يظهرون له الإكرام شرحًا لصدره، وإدخالًا للسرور عليه فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، فما تواروا عن عين أبيهم إلا وشرعوا يؤذونه شتمًا وضربًا ثم ربطوه بحبل، ودلوه في الجب، فكان إذا لجأ إلى واحدٍ منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربوه على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط يوسف في الماء فغمره فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف:١٥).

يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وإنزاله اليسر حال العسر: أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا بك من هذا الصنيع.

كيف نجاه الله من هذا الكرب وكيف أخرجه من ظلمات الجب؟ لقد قدر ربنا تبارك وتعالى أن تمر قافلة بالقرب من هذا البئر فأرسلوا واحدًا منهم يستقي لهم الماء من ذلكم البئر فلما أنزل الدلو علق به يوسف ثم خرج من تلك الظلمات ليدخل إلى مصر ويواجه محنة أخرى تكون قريبة الفرج، وتكون تلك المحنة الجديدة طريقًا للملك بعد الذل والرق قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف:١٩)

وظهر إخوة يوسف في الصورة مرة أخرى لا ليخلصوا أخاهم من الأسر بل ليبيعوه لهذه القافلة، قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ (يوسف:٢٠).

باعه إخوته بثمن قليل زهيد يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم حتى جاءهم إخوة يوسف فزعموا أنه عبد آبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب[1].

ودخل يوسف إلى ديار مصر ليباع فيها بيع الرقيق ولكن الغيب يخفي له لطائف من رحمة الله به وتأهيله لكرامة في مصر أرادها الله له.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «قصص الأنبياء»: وهذا من جملة لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة، قالوا: وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي بيده الخزائن[2]. ومعنى ذلك أنه سيعيش في النعيم والخير الغزير والغنى الواسع في بيت العزيز.

٣- حفظه من كيد امرأة العزيز والنسوة:

وهذه محنة أخرى من لون آخر هي أشد وأخطر ولكن الله يحفظ أولياءه ولا يخذلهم أبدًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٣٩٥).

(2) «قصص الأنبياء» (٣٠٦).

أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(يوسف: ٢٣-٢٨)

لقد بَرَّأه الله بشهادة شاهد من أهلها ودفعت عنه التهمة بذلك، وكون الشاهد من أهلها أقوى في الحجة وأوثق للبراءة وأنقى للتهمة، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها وأعظم أجرًا لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل فقدم محبة الله عليها، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مُكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب أن راودته التي هو في بيتها عن نفسه أي هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه، من غير شعور أحد ولا إحساس بشر وزادت المصيبة بأن غلقت الأبواب وصار للحل خاليًا وهما آمنان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب. وقد دعته إلى نفسها وقالت: هيت لك، أي افعل الأمر المكروه وأقبل إليه، ومع هذا فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه وهو أسير تحت يدها وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب أعزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم فصبر عن معصية الله[1].

(١) «تفسير السعدي» (٤١٥).

نعم إن الله لطيف بأوليائه رحيم رؤوب بأصفيائه يدفع عنهم البلاء، وينجيهم من الفتن والضراء، ويحفظهم ويحوطهم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا كله مع أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة أنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه من مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء[1]، صرف الله عن يوسف هذه المحنة ولكن سرعان ما تلبَّدت حوله غيوم الكيد مرة أخرى، وأحاطت به براثن كيد النساء المدمر، حيث سمعت النسوة بما جرى فأنكرن على امرأة العزيز أن تفعل ذلك الفعل المشين وهنا خططت هي لكي تخرج من أنفسهم هذا السخط والإنكار، والتشنيع عليها والتنقص لها، فأقامت لهن في قصرها وأعدت لكل واحدة منهم متكئًا، وآتت كل واحدة منهن سكينًا تستعملها في الطعام وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة أخرجت عليهن يوسف فلما رأينه أعظمنه وأجللنه وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يقطعن أيديهن بتلك السكاكين.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ

(١) «قصص الأنبياء» (٣٠٧).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(يوسف: ٣٣-٣٤)

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين وعبرة للمتأملين، فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر وأعجبهن غاية العجب، وظهر منهم من العذر لامرأة العزيز أرادت أن تريهن جماله الباطن فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف: ٣٢)، أي امتنع وهي مقيمة على مراودته لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومحبة وشوقًا لوصاله، ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف: ٣٢)، لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعاذ به على كيدهن ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: ٣٣)، وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته وجعلن يكدن به في ذلك فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣٣)، حقًا إن هذا جهل لأنه إيثار لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات، وشهوات متنوعات في جنات النعيم، فدعا يوسف ربه أن يفرج عنه هذا الكرب ولو أدى به إلى غياهب السجون فهي أسلم وآمن من فتنة عمياء تعصف بالقلوب فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم، فلم تزل امرأة العزيز تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها وصرف الله عنه كيدها،

فذلك من معونة الله ولطفه، وهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة العظيمة والمحنة الشديدة[١].

٤- من غياهب السجن إلى عرش مصر:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (يوسف: ٣٥). يقول ابن كثير: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أن يسجنوه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع عن الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض وذكر السدي أنهم سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها[٢]، كيف السبيل إلى الخروج من السجن، وبأي طريقة يخرج؟ هيأ الله له الأسباب ودخل معه السجن رجلان فلما رأوا تقواه وأمارات الصلاح على وجهه طلب كل منهما منه أن يفسر له رؤيا رآها قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٣٦).

يقول ابن كثير في «قصص الأنبياء»: ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأخمد

---

(١) «تفسير السعدي» (٤١٦-٤١٧) بتصرف يسير.

(2) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٤٩٨).

لأمرها، وليظهروا للناس أنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها فسجنوه ظُلمًا وعُدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم، ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ (يوسف: ٣٦)، قيل إن أحدهما ساقي الملك وكان الآخر خبازه يعني الذي يلي طعامه، وكان الملك اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله، وكثرة عبادته لربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه، قال أهل التفسير رأيا في ليلة واحدة أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وصواري الطيور تأكل من السلة الأعلى، فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما[1].

وأخبرهما يوسف ﷺ بتأويل الرؤيا ولكنه قبل ذلك دعاهما إلى قضيته الأولى ومهمته الأساسية، دعاهما إلى توحيد الله ونبذ عبادة الآلهة الباطلة، وهكذا فليكن الدعاة هكذا فليكن الصالحون في مواقفهم بل وانفعالاتهم وسلوكياتهم أن تكون قضية الدين والعقيدة هي الأصل والأساس الذي يجب أن يُرسى ويؤصل، ويغرس في نفوس الناس، ويعلم لهم، أنها دعوة إلى الله لا يوقفها شيء ولا يقف في سبيلها شيء، فهي كالماء يسري بين الصخور الصلبة الجامدة إذا وقفت أمامه صخرة تفاداها برفق وسلك طريقه بلا توقف ليجعل بين هذه الصخور حياة تتلألأ بالنضارة والبهاء، تسر الناظرين وتبهج المشاهدين ها هو يوسف ﷺ يعلمنا هذا

(١) «قصص الأنبياء»: (٣١٠-٣١١) بتصرف يسير.

الدرس العظيم ففي السجن دعوة، وفي الطريق دعوة وفي العمل دعوة وهكذا فلنعي هذا الدرس العظيم.

ولما قام بما وجب عليه من الدعوة والبلاغ فسر لهما ما رأيا قال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف:٤١-٤٢).

قال ابن كثير: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف:٤٢)، يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم اذكر ذلك عند الملك، وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب وقوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: فأنسى الشيطان الناجي منهما أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام[1].

لذلك مكث يوسف صلى الله عليه وسلم في السجن بضع سنين، ولكن كان ذلك لحكمة أعلى وغاية أكمل فقد يكون خروجه من السجن بهذه الطريقة خروجًا عاديًا، ولا يصل إلى ما وصل إليه من التمكين فيما بعد، فانظر كيف قضى ربنا وقدَّر أمرًا آخر ليستخرج به يوسف صلى الله عليه وسلم من السجن.

رأى الملك هذه الرؤيا في منامه فأفزعته وأقلقته ولم يجد عند حاشيته والمقربين إليه من يحسن تأويلها أو يفقه تفسيرها، ولما أخبروه بعجزهم عن تأويل الرؤيا واشتد به الأمر، وازداد القلق والأرق عند كل من في القصر تذكر الساقي أمر يوسف

(١) «قصص الأنبياء»: (٣١٢).

ﷺ فذهب إليه في التو واللحظة فكان ما قصه ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف:٤٣).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التي يتناول تأويلها جميع الأمة ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله وبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقارير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هالته فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ ﴾ (يوسف:٤٣)، وهذا من العجب أن السبع بقرات العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن يأكلن السبع السمان اللاتي كن في منتهى القوة، ﴿عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ (يوسف:٤٣)، ورأيت سبع سنبلات خضر يأكلن سبع سنبلات يابسات فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا وقالوا أضغاث أحلام، أي: أحلام لا حاصل لها، ولا تأويل لها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ (يوسف:٤٤)، وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها الملك على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزا عنها لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن

الجواب وكان الملك مهتمًا بها غاية الاهتمام، وعندما عبرها يوسف وقعت عندهم موقعًا عظيمًا ثم قال الشيخ: فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه[1].

وعبر لهم يوسف عليه السلام الرؤيا على نحو ما ذكرها ربنا في سورة يوسف ولما عرف الملك من خلال ذلك ذكاء يوسف ودقة فهمه، وبراءة تفكيره وتفوقه على غيره في العلم والحكمة رأى أن يخرجه من السجن وأن يجعله من أصفيائه المقربين، ووزرائه ومستشاريه في أموره، فلما جاءه الرسول يبشره بخروجه رفض يوسف أن يخرج وهذا درس آخر في غاية الروعة نتعلمه من نبي الله يوسف وهو الحلم والأناة قال للرسول كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٠).

أنه أراد براءة مما ألصق به الظالمون من أهل تلك المرأة المراودة، وسبحان الملك أرادوا أن يوهموا الناس أنه هو الذي راودها فأبطل الله كيدهم وأظهر للعالمين براءته ونزاهة أخلاقه عن مجرد التفكير في ذلك، وذلك باعتراف المرأة ذاتها وكذلك النسوة اللاتي كن معها، تأمل هذا المشهد الختامي الرائع لقضية مراودة امرأة العزيز ليوسف قال ربنا جل وعلا ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٠-٥٣)

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ السعدي (٣٩٩).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ولما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما أظهروا عنه مما نسبوا إليه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ ﴾ (يوسف: ٥٠)، أي: أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع ما قاله وتبين حاله قال إنك اليوم لدينا مكين أمين، أي: ذو مكانة وأمانة ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٥)[1].

هكذا لطف ربنا بنبيه يوسف بعد كل هذه الابتلاءات وبعد كل هذه المحن، يأتي فرج الله فيصير ممكنًا في الأرض صاحب كلمة نافذة وملك كبير - قال الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (يوسف: ٥٦-٥٧).

وهذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخره له في الآخرة من الخير الجزيل والثواب الجميل.

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

٥- اجتماع الشمل في أرض مصر:

بعد أن صار يوسف حاكمًا في ديار مصر، وصار على خزائن الأرض أتم الله به لطفه، وأسبغ عليه واسع فضله فجاءه بأهله، حيث جاء إخوته إليه ودار بينه وبينهم ما حكاه ربنا في سورة يوسف وكيف استبقى أخيه وكيف رد الله بصر أبيه إليه من خلال إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه، وطلب إخوته من أبيهم أن يستغفر لهم من سوء ما جنوا في حق

(1) «قصص الأنبياء»: (٣١٥-٣١٦).

أخيهم، ودخلوا جميعا ديار مصر آمنين وأكرم أبويه غاية الإكرام، قال ربنا جل وعلا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٩٩-١٠٠).

سبحان الملك زالت المكاره والمخاوف، انقضت الآلام والأحزان زال عنهم النصب والكرب وحصل لهم السرور والهناء، والسعادة والرخاء، وجمعهم الله بعد طول افتراق، وحفظ الله يوسف ورد بصر أبيه وتاب على إخوته.

فهكذا إخوتاه ربنا لطيف بنا رحيم بنا فكونوا لله عبيدًا حقًا تروا عجائب لطف الله بكم، كلما حققتم العبودية لله كلما أبصرت أبصاركم وبصائركم عظمة ربكم وجلاله، ولطفه ورحمته وحفظه وحكمته فسبحانك يا من لو اطلع خلقك على جميل لطفك بهم أحبوك حقًا سبحانك يا من ألهمتنا رشدنا وحركت جوارحنا الآن لنتكلم عن لطفك بلطفك فأتم علينا في الآخرة سابغ لطفك ورحمتك يا ربّ.

لطف الله بتنبيه يونس بن متى عليه السلام

الأحداث التي انطوت عليها قصة ذي النون وصاحب الحوت يونس صلى الله عليه وسلم تشير وتشي بعظيم لطف الله وسعة جوده ورحمته، قال أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين ظهرانيهم ووعدهم نزول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم رجعوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا غليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم وهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها[1]، إلا قوم يونس.

قال الحافظ بن حجر رحمه الله: روى بن أبي حاتم من طريق عمرو بن ميمون، بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: وأصبح يونس فأشرف على القرية فلم ير

(١) «قصص الأنبياء»: (٣٤٤-٣٤٥).

العذاب وقع عليهم وكان في شريعتهم من كذب قتل، فانطلق مغاضبًا حتى ركب سفينة فاضطربت بهم السفينة فقال لهم يونس: إن معهم عبدًا آبقا من ربه، وأنها لا تسير حتى تلقوه، فقالوا: لا نلقيك يا نبي الله أبدًا، قال فاقترعوا فخرج عليه ثلاث مرات، فألقوه فالتقمه الحوت فبلغ به قرار الأرض فسمع تسبيح الحصى فنادى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧)[1].

مكث يونس في هذه الظلمات يعج بتسبيح رب الأرض والسماوات حتى سُمع صوته المحبب المألوف إلى الملأ الأعلى فأوحى الله إلى الحوت أن يلقيه وأنبت عليه شجرة تواريه قال الله جلا وعلا في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الصافات:١٣٩-١٤٨).

ولا زالت دعوة يونس مستجابة باقية لكل من دعا بها، قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذا دعا بها وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم لي شيء قط إلا استجاب الله له»[2].

وخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أنس يرفعه أن يونس عليه السلام لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة، يا ربّ هذا صوت معروف من بلاد غريبة فقال الله عز وجل أما

---

(1) «فتح الباري»: (٦/ ٥٢١).

(2) رواه الترمذي وأحمد عن سعد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).

تعرفون ذلك؟ قالوا: من هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل رفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟، قال: نعم، قال: يا ربّ، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، قال: فأمر الله الحوت فطرحه بالعراء[1].

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (٣٣/ ١٠٠)، وإسناد ضعيف كما قال محققًا «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٤٢).

لطف الله بإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ

منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام أشرقت شمس النبوة فملأت الكون ضياء وريًا، وهدي وعلمًا، فأحيت القلوب والنفوس وأنقذت الأرواح من ظلمات الكفر الحالكة، وطهرت العقول من خبائث الجهل المهلكة، فطابت الدنيا واهتزت أرجاؤها بهجة وفرحًا وتعطرت أنفاس النسيم سعادة وسرورًا، وتألق وجه الأرض نضارة ونورًا، إنها تلكم الفترة من الزمان التي هي كالشامة في تاريخ الأيام، وكالدرة في جبين الدنيا، وكالشمس المشرقة في دياجير الظلام، تلكم الفترة الوضيئة الوضاءة التي عرفت فيها الدنيا معنى الحياة وحقيقة الحياة وغاية الحياة، عرفت فيها الدنيا كيف يحترم الإنسان إنسانيته، وكيف يوظف عقله وقلبه وروحه وكل إمكانياته في إقامة صرح العبودية لله، على أرض تُسبح بحمد الله وتحت سماء تسجد لله جل جلاله.

أرأيت نورًا أشرق في الأرض مرة فما غرب ولا انطفأ بل لا زال ضياؤه فينا يهدينا ولسوف يبقى ذلكم النور في الأرض، حتى يبعث من في القبور بإذن ربنا الحكيم الغفور أي نوع من النور ذلك الذي غرسه للمصطفى في القلوب، فانتقل من جيل إلى جيل واهتدت بهداه أجيال من بعدها أجيال؟!

أي نوع من الطهر ذلك الذي أزال به رسول الله ﷺ أوضار النفوس والأرواح ومساوئ الأخلاق والعادات؟!

أي بلسم وترياق ذاك الذي عالج به رسول الله ﷺ صخور الشرك المتجذرة في القلوب والمتأصلة في النفوس؟!

من في العالمين أثر في تاريخ الدنيا وأحداث التاريخ كما أثر رسول الله ﷺ ؟! من في العالمين بني صرحًا كصرح الإسلام العظيم؟! والذي أعلاه وبناه بفضل الله رسولنا الكريم.

إمام المرسلين فداك روحي ... وأرواح الأئمة والدعاة
رسول العالمين فداك عرضي ... وأعراض الأحبة والتقاة
ويا علم الهدى يفديك عمري ... ومالي يا نبي المكرمات
ويا تاج التقي تفديك نفسي ... ونفس أولي الرئاسة والولاة
فعرضك عرضنا ورؤاك فينا ... بمنزلة الشهادة والصلاة
وذكرك يا رسول الله زاد ... تضاء به أسارير الحياة
وغرسك مثمر في كل صقع ... وهديك مشرق في كل ذات
وما لجنان عدن من طريق ... بغير هداك يا علم الهداة
رفعت عن البرايا كل إصر ... وأنت لدائها آسي الأساة
فمنك شريعتي وسكون نفسي ... ومنك هويتي وسمو ذاتي
ولي فيك اهتداء واقتفاء ... لأخلاق العلا والمكرمات
وفيك هدايتي وشفاء صدري ... بعلمك أو بحلمك والأناة
ومنك شفاعتي في يوم عرض ... ومن كفيك إرواء الظماة
رسول الحق في ذكراك قربي ... وتحت لواك أطواق النجاة
عليك صلاة ربك ما تجلى ... ضياء واعتلى صوت الهداة

تعالوا إخوتنا نعرض لبعض مظاهر لطف الله بحبيبه ونبيه ومصطفاه تعالوا نعطر القلوب والأرواح والأفواه بالحديث عن قدوتنا وأسوتنا رسول الله ﷺ وعلى آله ومن اهتدى بهداه.

أولاً- قيض الله له زوجة حكيمة حليمة وعمًا شفيقًا:

تزوج النبي ﷺ بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وكان لها من الحكمة والفضل ما لا يدرك وكان لها من المنزلة عند الله مكانة عالية في العالمين فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أوشراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[1]، وضعت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مالها وجهدها في خدمة الدعوة إلى الله، وكانت بمثابة الوزير الصادق والناصح الوفي الأمين وكانت تزيل كربه وتواسيه وتطمئن قلبه.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد في الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني

(١) رواه البخاري برقم (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (العلق: ١-٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءًا قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[1].

وكانت أمنا خديجة رضي الله عنها مثالًا صادقًا، وقدوة حقيقية وأسوةً للزوجة الصالحة العاقلة التي تعين زوجها على العبادة والطاعة، وتحمل أعباء رسالة ودعوة إلى كافة البشر، وتسعى بكل سبيل إلى تفريج همه وتنفيس كربه، ولهذا الفهم السديد والعقل

(١) رواه البخاري في بدء الوحي (١/ ٣٠)، ومسلم (٢/ ١٩٧) الإيمان.

الكبير، اختارها الله واصطفاها لتكون زوجة لسيد البشر في بداية أمره وفي أول دعوته فرضي الله عنها وأرضاها.

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، والإدراك والمعونة وكانت خديجة سباقه إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثر كريم[1].

وكذلك كان أبو طالب درعًا حصينًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجوه المشركين، فكان يدافع عنه ويحميه ومن أبياته المشهورة في زوده ودفاعه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله.

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتني وعرفت أنك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت دينًا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٨٠).

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أبا طالب رغم بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء ظل حي العاطفة، ظاهر الحدب على ابن أخيه وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته بيد أن إعزازه لمحمد وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له، بل على التعمد بحمايته وهو يبلغ عن ربه.

وأبو طالب من رجالات مكة المعدودين، كان معظمًا في أهله، معظمًا بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته أو استباحة بيضته وكان بقاؤه مع أهل مكة محترمًا للأوثان، من أسباب امتداد نفوذه ورعايته حقوقه[1].

ولهذا كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على هدايته للإسلام فبذل كل سبيل هداية عمه ولكن الله العليم الحكيم جل وعلا نفذ قضاؤه الذي قد قدره وقال لرسوله ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

وعن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا

(١) «فقه السيرة» (١٠٦) قلت: ولو أسلم أبو طالب لما كان له أن يدافع عن النبي ﷺ بل وكان هو الآخر ممن يؤذي ويعذب فكان في بقائه على الكفر سيئًا يسيغ له الدفاع عن ابن أخيه عجية وحمية وكان هذا أمكن في الدفاع و الحماية والله أعلم.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

(التوبة:١١٣)

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: «ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1].

ثانيًا- أيد الله رسوله بالمعجزات الباهرة:

كان رسولنا محمد ﷺ أكثر الرسل معجزة وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا، فله من المعجزات ما لا يحد ولا يعد، ومن أهم المعجزات التي أتاها الله رسوله محمدًا ﷺ القرآن الكريم، وقد تحدى الله البشر قاطبة ولا زال التحدي قائمًا تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، ثم خفف التحدي إلى أن دعاهم أن يأتوا بسورة واحدة فعجزوا كذلك وسوف يظلون عاجزين ونقولها بكل ثقة ويقين قال ربنا جل وعلا ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨). ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود:١٣). ثم وصل التحدي إلى أقل درجة فعجز البشر عنه قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس:٣٨). وكذلك في سورة البقرة أعاد الله جل وعلا التحدي بسورة منه وأخبر تعالى أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا لا في الحال ولا في المآل لا في الحاضر ولا في

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٣٣) (مناقب الأنصار)، ومسلم (٣/ ٨٤) (الإيمان).

المستقبل فأي برهان وحجة أنصع من ذلك على عظمة هذا الدين، وأنه هو الحق الذي لا ريب فيه من رب العالمين جل جلاله قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣)

ومن المعجزات الباهرة والآيات الطاهرة معجزة الإسراء والمعراج قال تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١). وقد ذكرت هذه الرحلة مفصلة في كتب السنة وكتب السيرة فأرجع إليها إن شئت[1].

ومن معجزات رسول الله ﷺ انشقاق القمر، فقد روي في البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما[2]، قال الله جل وعلا ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١).

ومن معجزات رسول الله ﷺ تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة ﷺ من ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال: مالكم؟، قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثوب بين أصابعه، كأمثال العيون فشربنا

(1) «صحيح مسلم» (كتاب الإيمان، باب الإسراء) رقم (١٦٢).
(2) رواه البخاري برقم (٣٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢).

وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ فقال: لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمسة عشرة مائة[١]، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم[٢].

ومن ذلك ما رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يا جابر نادِ بوضوء، فقلت: ألاَ وضوء، ألاَ وضوء، ألاَ وضوء؟ قال: قلت يا رسول الله ما وجدت في الركب قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ في أشجاب له على حمارة من جريد[٣]، قال: فقال لي: انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري، انظر هل في أشجابه من شيء؟ قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في شجب منها، لو أني أفرغه لشربه يابسة قال فاذهب فأتني به، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ويغمزه بيديه (أي يعصره) ثم أعطانيه فقال: يا جابر ناد بجفنة، فقلت: يا جفنة الركب فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه فقال رسول الله ﷺ بيده الجفنة هكذا، فبسطها وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال خذ يا جابر فصب علي، وقل باسم الله فصببت عليه

---

(1) رواه البخاري برقم (٣٥٧٦)، ومسلم برقم (١٨٥٦) وانظر ثقة جابر ويقينه حسن يقول: لو كنا مائة ألف لكفانا.

(2) رواه البخاري برقم (٣٥٧٣)، ومسلم برقم (٢٢٧٩).

(3) الأشجاب هي القرب القديمة، والحمارة من جريد هي أعواد تعلق عليها القرب.

وقلت: بسم الله فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله ﷺ ثم فارت الجفنة، ودارت حتى امتلأت فقال: يا جابر ناد من كان له حاجة بماء قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، قال فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[(١)].

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسر إلي حديثًا لا أخبر به أحدًا أبدًا، وكان رسول الله أحب ما استتر به، في حاجته هدف أو حائش نخل، فدخل يومًا حائطًا من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله إنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه[(٢)].

ومن معجزاته ﷺ تسليم الحجر عليه فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن[(٣)].

ومن معجزاته ﷺ تسبيح الطعام بين يديه ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء، فقال: اطلبوا لي فضلة من ماء، فجاءوا

(١) رواه مسلم برقم (٣٠١٣).

(2) رواه مسلم برقم (٢٥٤٩)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٠٤).

(3) رواه مسلم برقم (٣٥٧٩).

بإناء به ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[1].

والمعجزات غير هذه كثيرة جدًا كحنين الجذع واستجابة الشجر لأمر رسول الله ﷺ وهذا من باب لطف الله برسوله وتأييده له وكذلك استجابة دعائه ﷺ وإخباره ﷺ بالغيبيات.

ثالثًا- حماية النبي وحفظه من أعدائه:

ومن لطف الله برسوله حفظه وعصمته من أعدائه المتربصين به المصرين على قتله والقضاء عليه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا لأن الله جلا وعلا قال له ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧). وكم لهذا الحفظ الإلهي للحبيب المصطفى النبي ﷺ من شواهد كثيرة فمن ذلك....

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)[2].

---

(1) رواه البخاري برقم (٣٥٧٩).

(2) رواه البخاري برقم (٤٩٥٨)، ومسلم واللفظ له برقم (٢٧٩٧).

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا فولى صحابة النبي ﷺ فلما غشوا عن رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضةً من تراب من الأرض ثم استقبل بها وجوههم فقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينه ترابًا، بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله عز وجل وقَسَّم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال عزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر قال: فقال رسول الله ﷺ: إن رجلًا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا في يده فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني: فقلت الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت رسول الله ﷺ شاه فيها سم، فقال: رسول الله ﷺ اجمعوا لي من ها هنا من اليهود فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ قالوا نعم يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، فقال:

---

(1) رواه مسلم برقم (١٧٧٧).

(2) رواه البخاري برقم (٢٩١٠)، ومسلم برقم (٨٤٣).

هل أنتم صادقوني عن شيء إن أنا سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، إن كذبناك عرفته كما عرفته في أبينا فقال لهم رسول الله ﷺ من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا، ثم قال لهم: هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم، فقال هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟، فقالوا: نعم فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا أردنا إن كنت كذابًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك[1].

وذكر ابن إسحاق أن أم جميل امرأة أبي لهب لما بلغها نزول قول الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١). وذكره بما ذكرها الله مع زوجها من الذم أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من الحجارة، فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر فاه[2].

وذكر الحافظ ابن كثير عليه رحمة الله عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (المائدة: ١١)، قال: وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين،

---

(1) رواه البخاري برقم (٥٧٧).

(2) رواه أبو يعلى (٥٣)، والحميدي (٣٢٣)، وغيرهما وحسنه محقق «الشفا» (١/ ٣٦٨).

ووكلوا عمرو ابن جحاش بن كعب بذلك، وأروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده، أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية فيهم، وقوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٠)، يعني من توكل على الله كفاه ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم[1].

وأورد البخاري في صحيحه من حديث سراقة بن مالك بن جعشم قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل أراهما محمدا وأصحابه، قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرس وهي من وراء أكمة. فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت رجة الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرس فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت فأهويت يدي على كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقمت بها أخرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٥).

الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يزراني ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ (١).

قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله: ومن عصمة الله رسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحُسادها ومُعانديها ومُترفيها مع شدة العداوة والبغضة،ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذا كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم اجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا ثم قبض الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود وكلما هم أحد المشركين وأهل الكتاب سوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر وحماه الله منهم وكلما هم أحد المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء،

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٩٠٦).

ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاه بخيبر أعلمه الله به وحماه الله منه، ولهذا أشباه كثيرة جدًا يطول ذكرها[١].

وفي تآمر المشركين على قتل رسول الله ﷺ في حديث الهجرة قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل ابن هشام، فقال وهم على بابه، إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، نجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوه كان له فيكم ذبح ثم بعثكم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (يس:١-٥). إلى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس:٩). حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ماذا تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متغطيًا ببُردةِ رسول الله ﷺ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٨٥).

فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا[1].

وقبل ذلك وأثناء رحلة الهجرة استمر المشركون في طلب رسول الله ﷺ والصديق وكان النبي ﷺ قد كمن في غار ثور حتى تهدأ ثورة البحث، ومع أخذ كل أسباب الحيطة، ومع بذل كل الأسباب في النجاة، وصل المشركون إلى الغار، وأصبحوا واقفين أمام باب الغار، ومعهم سيوفهم وأسلحتهم، واشتعل لهيب غيظهم وتأججت نيران العداوة في قلوبهم،ولو رأوا رسول الله ﷺ فلم يمهلوه لحظة واحدة، ولكن ربي حفيظ عليم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما[2]، وأعمى الله المشركين عنها ونجى الله نبيه والصديق من كيد الكافرين، وفي هذا يقول ربنا جل جلاله ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٤٠)

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠٣)، برقم (٥٠٣)، وإسناده مرسل وقد حسن بعضهم إسناده لمجيئه من طريق آخر ضعيف والله أعلم.

(2) رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

رابعاً- نصرة رسول الله ﷺ على أعدائه:

هذه المعارك المباركة التي قادها الرسول القدوة محمد ﷺ رأينا فيها مدى حنكة وحكمة ودربة النبي ﷺ العسكرية بل إنه ضرب أروع مثل وأعظم قدوة للقادة العسكريين، ورأينا فيها كذلك تأييد الله لرسوله بالملائكة تارة، وبالرعب الذي ألقي في قلوب أعدائه تارة أخرى إلى غير ذلك من جند الله التي لا يعلمها إلا هو.

ونضرب لذلك مثلاً واحدًا وهو غزوة الخندق حيث أقبل المشركون بقيادة أبي سفيان بن حرب ومعه عشرة آلاف مقاتل، وهو عدد كبير جدًا بالنسبة لعدد المسلمين كيف يصدون هذا العدوان الغاشم؟! وبعد أن استشار النبي ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم أمر بحفر خندق حول المدينة وكان النبي ﷺ يحفر مع أصحابه بل كان يحمل التراب بنفسه فقد روي البخاري في صحيحه من حديث البراء رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات بن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألي قد بغوا علينا ... إن أرادوا فتنة أبينا

قال ثم يمد صوته بآخرها وجاء المشركون وعسكروا قريبًا من المدينة، ثم فوجئوا بهذا الخندق الذي لم يعهدوا مثله في الحروب من قبل واستمر بقاؤهم قرب

المدينة يقومون بمناورات ومحاولات لاقتحام ذلك الخندق، ولكن ليوث الإسلام نجحوا في صد ذلك ومنعه وهنا سلط الله على أعدائه جنديًا من جنوده فهزموهم شر هزيمة وانسحب جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل دون أن يحقق ذرة نصر بل باء بالهزيمة وكفى الله المؤمنين القتال، أتدري ما هذا الجندي إنه الريح، قال الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب:٩)، قال مجاهد: سلط الله عليهم الريح فكفأت قدورهم ونزعت خيامهم حتى أظعنتهم[1].

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه أحد، فقال: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم: قال اذهب وأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تذعرهم علي،ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل حمّ، فلما أتيته أخبرته بخبر القوم، وفرغت

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٦٤).

قررت فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائمًا حتى أصبحت قال: قم يا نومان[١].

قال الحافظ ابن حجر: وفي رواية عند البيهقي في الدلائل قال حذيفة رضي الله عنه: وبعث الله عليهم الريح فما تركت لهم بناء إلا هدمته، ولا إناء إلا أكفأته[٢].

قلت: وفي حديث حذيفة رضي الله عنه رحمة من الله به إذ مشى وكأنه في حمام حيث ذهب ذلك البرد الشديد عنه، وكذلك فيه رحمة من الله بأبي سفيان، إذ لو أطاع حذيفة نفسه فقتله لمات على الكفر، فأنجاه الله في هذا الموطن ليسلم بعد ذلك ويموت موحدًا بالله، وفيه رحمة من الله بالمسلمين إذ طرد عنهم عدوهم وهزم الأحزاب وحده ونصر عبده وأعز جنده.

خامسًا- قيض الله لرسوله صحابة أوفياء كرام

قام هؤلاء الصحابة بتحمل أعباء الإسلام وأوذوا ﷺ فصابروا وصبروا وبلغوا دين الله، وبذلوا أرواحهم، ودماءهم وأموالهم لنصرة الإسلام، ولست أدري ماذا أذكر من مواقف الصحابة الآن، وفي حياة كل واحد منهم مواقف يعجز عنها الحصر، فهم أصفى الخلق قلوبًا، وأزكى العالمين نفوسًا[٣]، اختارهم الله واصطفاهم لصحبة خاتم الأنبياء ﷺ فكان كل فرد منهم أمة ها هو مصعب يفتح المدينة بالقرآن، وها هو جعفر وخبيب وحنظلة وغيرهم يبذلون دماءهم لله، يريدون بذلك جنته ورضاه ويكفي أن نذكر موقفًا واحدًا ليكون تنبيهًا على ما سواه.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٨٨).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٤٦٣).

(٣) انظر: كتاب «الآلي المستطابة في عظمة الصحابة» للمؤلف تقديم الدكتور/ أحمد فريد.

حيث استشار رسول الله ﷺ الناس فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى، اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك، من دونه حتى تبلغه.

فقال له الرسول ﷺ خيرًا ودعا له، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله: إنا براء، من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليهم نصرة، إلا ممن دهمه بالمدينة، فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر على بركة الله.

وفي رواية: لعلك أن تكون خرجت لأمرٍ أحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله لك فامض، فَصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعَادِ من

شئت، وسَالِمِ من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعطِنا ما شئت،وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت.

فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[1].

لطف الله برسوله في آخر حياته ﷺ :

لقد أتم الله على رسوله نعمته، فانتشر في ربوع الدنيا دينه ودعوته، وبَلَّغ الرسالة أكمل بلاغ، وترك أمته على محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وأنشأ النبي ﷺ جيلًا ربانيًا كان الواحد منهم أمة إمامًا قُدوة، فلما دخل الناس في دين الله أفواجًا وفتح الله لرسوله البلاد وقلوب العباد كان هذا مؤذنًا بقرب الأجل بعد تمام البلاغ روى الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا، قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرحنا بخروج رسول الله ﷺ ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم، قال: ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر، قال: فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك[2].

---

(١) رواه أحمد برقم (٣٦٩٨) قال الألباني بهامش فقه السيرة (ص:٢٣٥): والحاكم (٣/ ٣٤٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: إسناد حسن.

(2) رواه البخاري برقم (٦٨٠)، ومسلم برقم (٤٢٩).

وفي صحيح البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استنانًا قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثًا ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي[1].

وفيه من حديثها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: إن لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير، أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذًا لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

وهكذا ترك رسول الله ﷺ الدنيا بعدما غير هو وجهها وزين باطنها وظاهرها بزينة متلألئة من الإيمان بالله جل جلاله، وإذا كانت المعونة تأتي على قدر المئونة، وحفظ الله لعبده يكون على قدر الولاية والقرب فما بالكم بأعظم وأتقى وأعبد خلق الله لله؟ ما ظنكم برسول الله الذي رسم خطة رشد ومنهاج هدى يهتدي به كل من يريد السعادة ويقتفيه كل من يريد الجنة. ويتأسى به كل سائر إلى الله وليس للجنة طريق بعد المصطفى يؤدي إليها إلا طريقه هو، ولن تستطيع أبدًا دخول جنة الله إلا

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٣٨).

بهدي رسول الله ﷺ وهذه بعض الإشارات للطف الله بالمصطفى وحفظ الله لخليله ورسوله ﷺ إذ لو ذكرنا كل ما في الباب لطال المقام جدًا، فأرسل عقلك وقلبك مع كل موقف ستجد مواقف كثيرة تؤيده وتشابهه، وقدم لربك القربات وابذل في سبيله الطاعات واعلم بأن ربك لا يضيع أجر العاملين، ولا يخذل أولياءه وعباده الصالحين اللهم اجعلنا منهم بفضلك ومنك وكرمك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث

الشفاء بعد المرض

الصحة والسقم، والراحة والألم، والسعادة والكدر، كل ذلك لا يكون إلا بقدر، وقد يكون نزول المرض بالعبد من لطف الله به ففي المرض فوائد كثيرة وفضائل عظيمة يؤتاها المؤمنون الصابرون الموقنون ففيه كفارة الذنوب، وطهارة القلوب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ به الله عنه سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها[1]. وقال رسول الله ﷺ: ما يصيب المسلم من نَصبٍ ولا وصبٍ ولا هم ولا حزنٍ، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه[2]. وعن أم العلاء رضي الله عنها قالت:

(1) رواه البخاري (١٠/ ١١٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩١).

(2) رواه البخاري برقم (٥٦٤١).

عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال: أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة[١].

ففي المرض كفارة للذنوب ورفعة للدرجات، وتعرض لثواب الصبر، وذل النفس وقربها من الله، وتنبيه للنفس من الغفلة، وشكر لنعمة العافية عند بلوغها، وقد يكون في المرض منع للعبد من فعل شر، ونجاة من فتنة، وسلامة من معصية، هما هو رجل من الناس مرض فلما أحس بطول المرض ضجر وجزع وجعل يشكوا إلى الخلق حاله، ويقول لو عوفيت لأصنعن كذا وكذا من الخير، فلما عوفي ذهب ليزني!! فهل العافية خير لمثل هذا أم المرض؟!.

وذاك رجل آخر كان غارقًا في خبث الربا، ينجس بدنه وأبدان أولاده بأكل الحرام، فلما نزلت به الأمراض والآلام، واشتدت به ضراوة المرض، وأزعجه السهر والقلق والأرق، وأحس بقرب الأجل، ندم على ما فعل وجرت دموعه وارتجفت أعضاؤه خوفًا من القدوم على الله ثم عوفي فثبت على توبته واستقام على دين الله وطاعته، وهجر المعاصي وطهر نفسه منها، أليس المرض في حق هذا نعمة من أجل النعم؟!

عن عثمان بن الهيثم، قال: كان رجل بالبصرة من بني سعد، وكان قائدًا من قواد عبيد الله بن زياد، فسقط يومًا من السطح فانكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قلابة يعوده، فقال له: أرجو أن يكون ذلك خير لك، فقال يا أبا قلابة وأي خير في كسر رجليَّ جميعًا فقال ما ستر الله عليك أكثر.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٠٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٧١٤).

فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقال لمن جاءه بالرسالة: قد أصابني ما ترى واعتذر عن ذلك.

فلما كان بعد سبعة أيام جاء الخبر بمقتل الحسين بن علي فقال الرجل، رحم الله أبا قلابة، لقد صدق، إنه كان خيرًا لي[1]، اجتمع وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، فوددت أني ميت، فقال له يوسف بن أسباط ولم؟ قال: لخاف الفتنة.

فقال يوسف ولكني لا أكره طول البقاء فقال: الثوري: ولم تكره الموت؟ قال: لعلي أن أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا، فقيل لوهيب بن الورد: فأي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله، فقبل الثوري بين عينيه،وقال روحانية ورب الكعبة[2].

وتعالوا نعرض مشاهد من لطف الله بعباده في المرض ونرى كيف أن الشفاء سهل ميسور لو صدق العبد في تضرعه لله، ولجأ إليه ودعاه، فربنا على كل شيء قدير وليس شيء على الله بعزيز.

١- مشاهد من الشفاء بالرقية:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفرٍ فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم: فأتاه فرقاه

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/ ٢٣٨).

(2) «مدارج الساكين» لابن القيم (٢/ ٢٥).

بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل فأعطى قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها وقال حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: «ما أدراك أنها رقية؟ ثم قال: خذوا منهم واضربوا إلي بسهم معكم»[1].

ومن السم ما شفى:

ذكر التنوخي في «الفرج بعد الشدة»: عن عبد الوهاب بن محمد بن مهدي، أنه شاهد رجلًا مشلولًا حمل من أصبهان إلى عسكر مكرم، لكي يعالج من مرضه، فوضع الرجل في دكان خال مهجور، ولم يوجد إلا هذا الموضع ليسكن فيه، وكان هذا المكان به عقارب كثيرة ولم يدر الرجل ولا أهله بذلك، وصعد أهل الرجل وأصحابه إلى سطح هذا المكان في الليل وتركوه، وكان طريحًا لا يمكن أن يتقلب ولا أن يتحرك ولا أن يتكلم، وعندما نزلوا إليه وجدوا الرجل جالسًا، ويتكلم بكلام فصيح فأحضروا بعض أهل الطب لينظروا في أمره ففتشه فوجد أثرًا للسعة عقرب في إبهام رجله اليسرى، فقال له: انتقل الآن من هذا المكان، فإنه مشهور بكثرة العقارب وقد لسعتك واحدة منها فأبرأتك بإذن الله، وعشت بشيء ما عاش به أحد قط، وإن لسعتها بردت الشلل وأزالته ولم تتجاوزه، وسيعقب ذلك حرارة شديدة فأصبر لها حتى أعالجك، وانتقل لئلا تلسعك أخرى فتتلف، وبرأ الرجل وشفي بإذن الله وكان الشفاء في سم العقرب فسبحان من بيده ملكوت كل شيء[2].

---

(1) رواه البخاري برقم (٢٢٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٠١).

(2) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي.

٢- هذا لطف الله:

هذه قصة نقف من خلالها على لفتة عجيبة من لطف الله سبحانه وتعالى، كانت هذه المرأة صالحة تكثر من ذكر الله وفعل الصالحات والخيرات وكانت تألف وتؤلف، وتكثر التضرع والدعاء، وفي ذات يوم شعرت بألم شديد جدًا في فخذها، وسارعت بأخذ المهدئات والمسكنات ولكن الألم يزداد ويشتد وتردد زوجها على كثير من المستشفيات بحثًا عن علاج فلم يجد دواء وسافر إلى لندن بزوجته ليبحث عن علاج لهذا الألم المقلق المؤرق وفي إحدى المستشفيات الكبرى هنالك اكتشف الأطباء أن هناك تعفنا في دماء هذه المرأة وبحثوا عن مصدره فإذا هو في موضع الألم من الفخذ، وعندئذ قرر الأطباء أن المرأة تعاني من سرطان في الفخذ، وهو السبب في هذا الألم وهذا العفن في الدم، وقرروا أنه لابد من الإسراع ببتر رجل المرأة من أعلى الفخذ حتى لا ينتشر المرض.

وبدأت عملية البتر فعلًا والمرأة مستسلمة لقضاء الله وقدره، ولسانها لا يكف ولا يفتر عن الدعاء والتضرع إلى الله. وبدأ تحديد موضع البتر بدقة شديدة،ووضع منشار كهربي طبي كبير ليقوم بهذا البتر بسرعة وفي هذه اللحظات الحرجة وهذه الدقائق العصيبة ورهبة الجميع وقع شيء عجيب ولأول مرة في غرفة العمليات، إن المنشار الذي سيقوم بالقطع بمجرد أن تحرك بعد توصيله بتيار الكهرباء انكسر المنشار،واندهش جميع الأطباء وبهت كل الحضور، ثم أعيد تركيب منشار آخر وبمجرد أن يقترب من فخذ المرأة ينكسر المنشار للمرة الثانية، وتعجب كل الحاضرين وحاولوا مرة ثالثة فحدث نفس الشيء ثلاث مرات متتابعة وينكسر المنشار!!.ووقفوا حائرين ينظر بعضهم إلى بعض، وبعد مشاورات سريعة قرر الأطباء إجراء عملية جراحة

للفخذ المصاب بالمرض وهنا حدث شيء أشد دهشة، وأعجب مشهدًا، عندما وصل المشرط إلى أحشاء الفخذ رأى الأطباء بأم أعينهم قطنًا متعفنًا بصورة كريهة، وبعد عملية يسيرة نظف فيها الأطباء ذلك المكان وعقموه، صحت المرأة وشفيت وزالت الآلام نهائيًا ولم يبق لها أثر.

ولما نظرت المرأة إلى رجلها صحيحة لم تمس بأذى ووجدت زوجها يتحدث مع الأطباء وهم يسألونه هل حدث وأجريت للمرأة عملية جراحية في فخذها، وعرف الأطباء أنه كان قد وقع حادث مروري وكانت المرأة قد جرحت فيه جرحًا عميقًا في ذلك الموقع، وبقي فيها ذلك القطن المتعفن الذي سبب الألم، فسبحان من عم لطفه وفاض بره وجل جلاله سبحانه وبحمده!![1].

٣- هل يمكن أن أرى الدنيا مرة أخرى؟!

هذه قصة رجل سوري متزوج ولديه ولدان، وقع له حادث أثناء عودته من عمله، وبعد سقوط من فوق دراجته البخارية قام يتحسس جسده فلم يجد جروحًا ولا كسورًا، ولكنه بعد عشر دقائق سمع صوتًا يشبه الانفجار المكتوم في رأسه، وشعر بأن في عينه جسم غريب، وهنا توقف ليسأل أحد أصدقائه أن ينظر في عينه لعله يجد فيها شيئًا، ولكنه لم ير شيئًا، ولما عاد إلى بيته شعر بأنه لم يعد قادرًا على أن يرى بعينه اليمنى، وبعد أربع سنوات فقد النظر بعينه اليسرى. وأصابه العمى تمامًا، وأجمع الأطباء أنه لا أمل بالنسبة إلى العينين.

---

(١) هذه الحادثة وردت في أكثر من مصدر منها على سبيل المثال الشفاء بعد المرض للحازمي (ص:٨٠).

ومما زاد كرب هذا الرجل وغمه أنه أصيب بعد ذلك بشلل تام في يديه، وشلل شبه تام في رجليه، وبعد مراجعة أهل الطب اكتشف أنه لا أمل أيضًا في علاج هذا الشلل، بل إن التقارير الطبية وصلت إلى المراكز الطبية الكبرى في أوروبا وجاءت النتيجة كذلك أنه لا علاج، ولا داعي لاستمرار المحاولات لأن الإصابة أسفرت عن انسداد في الشريان المركزي الذي يغذي الجسم.

وهنا يقول هذا الرجل المبتلى الذي بلغ به الكرب مداه، ولم يبق له إلا تضرعه إلى الله عز وجل يقول: لم أحزن ولجأت إلى الطبيب الواحد الأحد وهو الله سبحانه وتعالى، واستحضرت كثيرًا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء: ٨٠).

يقول: وفي ليلة العيد ذهبت زوجتي وأولادي للمبيت عند أصهاري لقضاء العيد بينهم، وذهبت أنا بمفردي لقضاء العيد عند والدتي، وفي نفس الليلة أردت النهوض لقضاء حاجتي فلم أستطع وجاءت أمي لمساعدتي ولكني سقطت على ظهري، وكانت الصدمة قوية جدًا وأسقطت على رأسي وفقدت الوعي تمامًا، وبعد لحظات بدأت أشعر أن أخي ووالدتي يساعداني على الوقوف، وشعرت بإحدى يدي بدأت تتحرك، وفعلًا تحركت يدي، وأحسست بيدي الأخرى تتحرك كذلك، ويا للعجب، ويا للدهشة، ما هذا؟ إنني بدأت أرى وأبصر، رأيت وجه أمي ووجه أخي، والأعجب من ذلك أن يدي اليسرى كان بها ضمور وتجعدات سرعان ما عادت اليد إلى وضعها الطبيعي، وهنا لم أتمالك نفسي وقبلت قدم أمي لأني شعرت أن الله عز وجل شفاني استجابة لدعائها فطالما دعت لي، طالما بكت وهي تدعو الله عز وجل أن يشفيني، سبحان الملك، أرأيتم كيف حالي؟ أرأيتم كيف شفاني الله عز وجل، لا أكاد

أصدق أني شفيت ولكن الله على كل شيء قدير، فالحمد لله الذي شفاني الحمد لله الذي عافاني.

ولما ذهبت إلى الطبيب ذهل وسكت لسانه وظل صامتًا فترة طويلة، ثم فحصني وقال الشرايين المقفلة أصبحت مفتوحة وصار الدم يجري فيها بشكل طبيعي جدًا.

وكم في واقع الناس من أمثال هذه القصة كم من مريض شفاه الله ورزقه قوة بعد ضعفًا وعزة بعد ذلًا، لو تأملت في واقع الناس ممن عافاهم الله لرأيت عجب العجاب، وكل شيء بقدر الله وكل أمر يجري في الكون فلحكمة أرادها الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون[1].

٤- شفاء بالعسل:

قال الله جلا وعلا في كتابه الكريم: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٦٨-٦٩)

فالعسل أحد الشفاءين الذين ذكرهما عبد الله بن مسعود في الأثر الصحيح عنه قال عليكم بالشفاءين العسل والقرآن[2]. يقول ابن القيم عليه رحمه الله: فجمع بين

---

(١) «الشفاء بعد المرض» للحازمي (ص:٩١-٩٣) بتصرف، نقلًا عن جريدة الصباحية عدد ٢٢ عام ١٤١٢.

(2) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه برقم (٣٤٥٢) وإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود.

الطب البشري والإلهي وبين طب الأبدان وطب الأرواح وبين الدواء الأرضي والدواء السماوي[١].

وتأمل هذا الحديث الرائع الذي يفيض باليقين والثقة ويغرسهما في القلوب، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، وفي رواية يشتكي بطنه، فقال رسول الله ﷺ اسقه عسلًا، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئًا مرتين أو ثلاث كل ذلك يقول له: اسقه عسلا، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذبت بطن أخيك». فسقاه فبرأ[٢]. يقول ابن القيم تعليقًا على هذا الحديث، وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه لم يزل بالكلية، وإن جاوزه أذهى القوي، فأحدث ضررًا آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره على أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة فلما تكرر تردده إلى النبي ﷺ أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء. فلما تكررت الشربات بحسب مادة المرض برأ بإذن الله وفي قوله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك، إشارة على تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء نفسه، ولكن لكذب البطن، ولكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمر بتكرار الدواء لكثرة المادة، وليس طب النبي ﷺ

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١١٠).

(2) رواه البخاري برقم (٤/ ٧٥) ومسلم برقم (٧/ ٢٢)، ومعنى استطلاق البطن فساد الهضم واعتلال المعدة.

كطب الأطباء، فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي صادر عن الوحي ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حَدْس وظنون وتجارب.

ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي به، بالإيمان والإذعان فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق هذا التلقي لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم ومرضًا إلى مرضهم، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية[1].

٥- الشفاء بطب النبوة:

روى البخاري ومسلم في صحيحهما -واللفظ لمسلم- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفرًا من عُكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض، وسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا. فهؤلاء القوم لما مرضت أجسادهم وآذاهم مس المرض شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فوصف لهم دواء بأن يشربوا من ألبان الإبل وأبوالها ففعلوا ذلك فشفاهم الله عز وجل وصحت أجسامهم[2]، واستدل العلماء بهذا الحديث على طهارة بول وروث ما يؤكل لحمه وكذلك استدلوا بالبراءة حيث لم يرد دليل بنجاسة بول وروث ما يؤكل لحمه، والأصل في الأشياء الطهارة إلا

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١١٠) بتصرف يسير.

(2) رواه البخاري برقم (٦٨٠٤) ومسلم برقم (٦٧١).

ما دل على نجاسته فإذا صح الدليل حكم بنجاسة هذه العين وإلا فالأصل الطهارة والله أعلم.

هذا وهناك نوع من العلاج النبوي لمن أصيب بعين حاسد وهذا العلاج يعرف بالاستغسال وهو أن يغسل الحاسد وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وداخلة إزاره ثم يصب هذا الماء على المحسود، وشاهد ذلك ما رواه الإمامان مالك وأحمد من حديث أبي أمامة سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلًا أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل فقال ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة فلبط سهل، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل، والله ما يرفع رأسه وما يفيق؟

قال: هل تتهمون فيه أحدًا؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامر فتغيظ عليه وقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟ ثم قال له: اغتسل له فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ثم صب ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس[1].

هكذا شُفي سهل بن حنيف في الحال لما وصف له النبي ﷺ هذا العلاج الناجع، وفي هذا الحديث فوائد منها:

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٣٨)، «كتاب العين»، وابن ماجه (٢٨٢٨).

١- أن العين حق والله تعالى قال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق: ٥). فأثبت ربنا الحسد وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد.

٢- أنه قد يقع الحسد من مؤمن فاضل تقي وكما قال شيخ الإسلام: ما خلا جسد من حسيد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه.

٣- إذا رأى المسلم من أخيه شيئًا يعجبه فليبرك عليه وليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم بارك لأخي فيما رزقته.

٤- الصحابة هم أفضل الأمة دينًا وعلمًا وخلقًا ولكن لا تثبت العصمة إلا لرسول الله ﷺ.

٥- من طرق علاج العين الاستغسال وكذلك الرقية وفي الصحيحين عن أمنا عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا بإذن ربنا»(١).

٦- أنه إذا أشكل على الإنسان شيء في دينه ودنياه ينبغي أن يذهب إلى أهل العلم يستفتيهم ويسألهم.

وروى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي، رجالًا من الأنصار فأمَّر عليهم عبد الله ابن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق أو متلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى

(١) البخاري (١٠/ ٢٠٦) (الطب)، ومسلم (السلام) (١٤/ ١٨٣).

دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب، فدخلت فكمنتُ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على ود قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت عليَّ من داخل قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأندهش فما أغنيت شيئًا، وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع[1]؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلًا في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته.

فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاة فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال لي: ابسط رجلك: فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط[2].

---

(1) غيَّر صوته وأوهمه أنه بعض خدمه.

(2) رواه البخاري برقم (٤٠٣٩).

فانظر كيف انكسرت رجل هذا الصحابي الجليل ثم بمجرد أن مسح عليها النبي ﷺ بيده الشريفة المباركة شفاه الله وأذهب عنه الألم تمامًا.

٦- شفاء كالبرق:

يقول ابن القيم في حديثه عن الرقى: «وأما شهادة التجارب، فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة لاسيما مدة المقام بمكة فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط جربت ذلك مرارًا عديدة.

وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء،والأمر أعظم من ذلك ولكنه بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين»[1].

٧- القرآن أعظم شفاء:

بعد هذا الكلام الماتع الذي ذكرته عن العالم الرباني ابن القيم عليه رحمة الله، توجد مئات بل آلاف الشواهد على ذلك ولكن أسوق قصة من عصرنا لنعلم أن فرج الله قريب من كل من دعاه، وشفاءه ميسور لكل من رجاه وسأل الله إياه.

هذه فتاة محبة لكتاب الله كثيرة التلاوة لآيات القرآن، أصيبت هذه الفتاة بمرض شديد مقلق مؤرق مؤلم، هذا المرض هو سرطان الكبد، وبقيت في المستشفى مدة

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (ص:٤٨).

طويلة، وإذ بالأطباء يقولون لأخيها إن حالتها سيئة جدًا، وهي تتردى من سيئ إلى أسوأ، وقد تموت في لحظة، ويا له من خبر ويا لها من مأساة!!

وكانت الفتاة تستشعر هذا الخطر وتحس بهذا المصاب الأليم، فطلبت من أخيها مصحفا لكي تقرأ فيه، وأخذت تتلوا آيات القرآن بكرة وعشية صباحًا ومساءً، وكلما قرأت نفثت في كفيها ثم مسحت بها جسدها، واستمرت على ذلك ليالي وأيامًا صابرة ثابتة طامعة في رحمة ربها وشفائه.

وكانت المفاجأة العجيبة للأطباء، رأوا أن الفتاة أصبحت حالتها تتحسن يومًا بعد يوم وأن بوادر الشفاء تظهر على وجهها فقد جرت الدماء في وجهها ونبض الوجه بالحيوية من جديد وبدأ جسمها ينشط في حركته وتعجب الأطباء من ذلك وسألوا أخاها هل أعطيتموها دواء؟ فقال أخوها: إنها استعملت أفضل دواء، إنه القرآن جعلت تقرأ وتنفث على جسدها، فشفيت وعادت إليها العافية، وتجدد في جسدها النشاط فسبحان من يحي العظام وهي رميم[1].

وهنا نسوق واقعتين سمعتهما من جراح القلب والداعية الدكتور خالد الجبير حفظه الله.. يقول وردت إلينا حالة لطفل عمره أربعة شهور وهو مصاب بشريان تاجي أيسر شاذ حيث أن هذا الشريان بدلًا من أن يخرج من الأورطي خرج من الشريان الرئوي وهذا يسبب له جلطات متكررة في القلب، قال: فأجريت له عملية بدأت في الساعة الثامنة صباحًا وظللت ومن معي في غرفة العمليات حتى الساعة الرابعة والربع فجرًا، ولازلنا لم ننته فقلت لزميلي الدكتور عبد الرءوف الصعيدي: قد

(١) «الشفاء بعد المرض» (ص:٩٦-٩٧) نقلًا عن كما تدين تدان لسيد الرفاعي.

برأت الذمة لا أعتقد أننا نستطيع أن نصنع شيئًا فقال: لا بأس قلت: إذًا، دعنا نفصل عنه الجهاز فإن عاش فخير وإن مات فقد أدينا ما علينا.

لأننا نعمل لمدة واحد وعشرين ساعة. وفي الرابعة والثلث أغلقت جهاز القلب والرئة الصناعية وإذ بالضغط ينخفض ٦٠-٥٠-٤٠-٣٠ وبعد دقيقتين نظرت فإذا بالضغط يعلو ٤٠-٥٠-٦٠-٧٠-٨٠-٩٠-١٠٠-١١٠ فنظرت على دكتور التخدير فقلت له هل أعطيته شيئًا يقوي القلب، قال لا، فنظر فإذا بالطبيب زميلي قد وضع يده اليمنى على قلب المريض يرقيه، فسكت حتى انتهى من رقيته، فقلت له: بماذا رقيته؟ قال: بالفاتحة وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبعًا، وبالمعوذات وآية الكرسي. فقلت: سبحان الله من ذا الذي أحياه، من ذا الذي شفاه؟ إنه الله الذي يحي العظام وهي رميم.

والثانية يقول عنها مريض من المرضى عمره ثلاث سنوات كانت العملية الجراحية له في منتهى الصعوبة فناقشت أهله في إجرائها من عدمه، قلت: الحالة خطرة جدا، قالوا: توكل على الله وأجرها، ونُسلم أمرنا وأمره لله قال: فبدأت في إجراء العملية من الصباح حتى الساعة الثانية عشرة ليلًا، ثم جئت به على الإنعاش، وعندما وصل ضغط القلب في الجهاز إلى درجة٢.٥ عرفت عندها أنه لا فائدة، ورأيت كذلك أنه لا بول فيه، والبول من أهم علامات الحياة عند جراح القلب، فإذا تبول المريض يرتاح الطبيب، وإذا لم يتبول فليعلم أن هناك مشكلة، وفي الساعة الثانية أحسست بالتعب الشديد فقلت للطبيب المناوب أنا تعبت افعل أنت ما تراه مع هذا الولد، فإنني أعتقد أنه ليس هناك أمل في أن يبقى حيًا، فقد فعلت معه كل ما أستطيع، وبينما أنا خارج من الإنعاش إذ بأم لأحد الأطفال المرضى تقول لي: يا دكتور إن ابنتي لا تنام،

فأرجو أن تقرأ عليها لتنام، قال: وعندئذ تذكرت ذلك المريض الذي هو في الرمق الأخير فقلت في نفسي: لماذا لا أقرأ عليه، لعل الله يشفيه بعد أن عجزت أنا في علاجه؟

قال: فرجعت مباشرة إلى هذا الولد المريض والله يا إخوة والله لقد حدث هذا انقلوها عني فوالله قد حدثت رأيت قدرة ربي لا إله إلا هو، وضعت يدي اليمنى على صدر المريض فوق جرحه، وجعلت أنظر لجهاز مراقبة الضغط أمام عيني، وجعلت أرقيه، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك وظللت أكررها وفي المرة الخامسة والسادسة والسابعة نظرت إلى الجهاز فإذا بضغط القلب يرتفع ٥٠-٦٠-٧٠-٨٠ وبمجرد أن قلبت الرقية سبع مرات إذ بالضغط يصل إلى ١٢٠ وبعد خمس دقائق إذ بالبول ينهمر منه، وبعد عشرة دقائق ارتفعت حرارة الجسد وصارت طبيعية جدًا، قلت سبحان الله من الذي أحياه؟ من الذي شفاه؟ إنه الله[1].

أورد الحافظ بن رجب في ذيل طبقات الحنابلة قال: حكى أبو الحسن بن حمدان الجرائحي قال: مرضت مرضًا شديدًا، شنج أعضائي وأقمت سبعة عشر يومًا لا أتحرك، وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ وقرأ علي آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ومسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام فخرج فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع، فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدي، وقال: احذر أن تقول شيئًا، فقلت: أقول وأقول.

---

(١) «أسباب منسية» محاضرة مسجلة.

٨- شفاء عصري بماء زمزم:

امرأة فلبينية كافرة أصيبت بمرض السرطان في بعض أجزاء جسمها، ثم انتشر المرض في جميع أجزاء الجسم حتى أجمع الأطباء أنه ليس هناك أي أمل في الشفاء، فلترجع إذًا إلى بلادها فتموت بين أهلها، وإذ بطبيب ذكي من الهند يفتح الله على قلبه، عندما ذهب إلى العمرة في مكة وبينما هو يشرب من ماء زمزم تذكر هذه المرأة المريضة، فقال في نفسه لماذا لا أحضر لها ماء زمزم؟ ألم يقل فيه النبي ﷺ: «أنه طعام وشفاء وسقم».

قال فأحضرت لها كمية كبيرة وقلت لها هذا ماء زمزم، نحن المسلمون نعتقد أن فيه شفاء، اشربي منه بنية الشفاء، وتيقني أن ربك سيشفيك، اشربي مرتين أو ثلاثًا في اليوم، داومت المرأة على ذلك لمدة خمسة أشهر، وبعدها شفيت بإذن الله كأن لم يصبها شيء، كأن لم تمرض من قبل ولما شفيت أسلمت، فمن الذي أحياها إنه الله قلت: سبحان الملك انظر كيف أحياها الله حياتين حياة بالإسلام من موت الكفر وظلمته، وحياة أخرى من آلام المرض وشدته.

وهناك قصة أخرى لكنها لامرأة باكستانية يقول الشيخ لازالت أذكر قصتها منذ واحد وعشرين سنة، وكانت هذه المرأة مصابة بفشل كلوي مزمن، وقرر الأطباء بأنه لابد من نقل كلية إليها، فأدخلناها المستشفى يوم الأربعاء حتى يتم إجراء الفحوصات الكافية قبل إجراء العملية يوم السبت حيث سيتم نقل كلية إليها من أمها، وفي مساء الأربعاء، جاء والدها وقال أنتم ستجرون لها العملية يوم السبت أليس كذلك؟ قلت: بلى، قال: فهل يمكن أن آخذها اليوم وآتيكم بها يوم الجمعة مساء، قلت: لا بأس، وذهب بها، ثم انتظرنا أن يأتي في الموعد المحدد فلم يأت، بحثنا عنه فلم نعثر عليه،

وبعد أربعة أشهر اتصل بي الطبيب الاستشاري أثناء وجودي في المستشفى وقال لي: انزل بسرعة، قلت ماذا تريد قال: أتذكر تلك المرأة الباكستانية المصابة بالفشل الكلوي المزمن؟ قلت: نعم، وأين هي؟ قال هي عندي، ولكن نتيجة التحاليل الخاصة بها بلغت درجتها مائة بالمائة، وليس عندها أثر لمرض، ما عاد عندها فشل كلوي، فذهبنا إلى أبيها وقلنا له: ماذا حدث؟ قال: لا شيء، ولكن جاءني صديق لي يوم الخميس وقال لي: قد يكون شفاء ابنتك في ماء زمزم، فلماذا لا تسقيها ماء زمزم؟ فذهب بها إلى مكة ولم يطعمها شيئًا ولم يسقها شيئًا إلا ماء زمزم.

قال أبوها: فأخذتها معي إلى مكة، وغسلت الكلية في أول يوم ثم سقيتها ماء زمزم فاكتشفت أنها لا تحتاج إلى غسل الكلية فصرت أسقيها ماء زمزم أربعة أشهر ثم جئتكم بها. قال: لقد شفاها الله وعافاها ببركة ماء زمزم، فسبحان الملك العليم الحكيم.

٩- شفاء بالاستغفار:

هذه قصة رجل من الصالحين انكسرت رجله إثر حادث وقع له في الطريق إلى مدينة رسول الله ﷺ يقول: ولماذ ذهبت إلى المستشفى أخبرني الأطباء بأنه لابد من بتر الساق، وذلك لأنها أصيبت بالعفونة، قالوا: لابد أن توقع على الموافقة على بتر الساق، لابد من بتر الساق بسرعة قال: نظروني مدة أفكر، قالوا: لا بد أن تسرع لأن العفن بدأ في الانتشار في خلايا الرجل، فلابد من البتر قبل انتشار المرض في الجسم كله.

قلت: اتركوني قليلًا، فجعلت أستغفر الله وأستغفر الله وظللت أدعو الله وأستغفر ثم غفوت قليلًا، ثم نمت فرأيت بي نومي رسول الله ﷺ فقال لي: لن تقطع رجلك وسوف تمشي عليها بأمر الله، فقلت: أأنت رسول الله؟ قال: نعم، أنا رسول الله ولن تقطع رجلك وسوف تمشي عليها، فاستيقظت مستبشرًا برؤيا رسول الله ﷺ، وبعد نصف ساعة جاء إلى الطبيب، وسأل هل ستوقع؟ قلت: لا لن أوقع، قال: إن الأمر فيه خطورة كبيرة، قلت: لن أوقع، قال وكان بجواري في المستشفى رجل مريض وفي وقت الزيارة جاء إليه أناس يبدو عليهم أنهم أصحاب وجاهات، ومكانة فقلت لهم أيها الإخوة أسألكم بالله أن تساعدوني في أن أنتقل إلى المستشفى العسكري أو المستشفى التخصصي، أريد أن تأتوني بواسطة من أجل ذلك، قالوا: وماذا بك فحدثتهم بما وقع لي وبما رأيت في منامي، فأخذوا اسمي وذهبوا وبعد ثلاثة أيام جاءت ممرضة في طائرة وقالت: أنت فلان؟ قلت: نعم، فقالت: عندنا أمر بنقلك إلى المستشفى العسكري فورًا، فبكيت والله على هذه النعمة وخشيت أن لا أشكرها، قال: فأخذوني إلى المستشفى العسكري وقابلني أحد الأطباء الكبار، وقال لي

سأجري لك خمس عمليات، وبعد العملية الخامسة بأمر الله سنتسابق أنا وأنت في الجري، وسوف تسبقني بإذن الله.

قال فأجرى لي العملية الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة وصدق في الخامسة شفيت بإذن الله فالحمد لله على نعمته. إنما شفاه ربه جل جلاله بالدعاء والاستغفار لاسيما وقد كان صاحب قيام الليل ودعاء وطاعات كثيرة ونوافل يتقرب بها إلى الله عز وجل[١].

قصص عصرية:

يقول الدكتور الأشقر حفظه الله: هذا عجوز قد جاوز التسعين من عمره، وكان جنديًا في جيش الخلافة العثمانية، وأنتم تدريبه هناك قبيل الحرب العالمية الأولى، أصيب في شبابه بداء أضعف قواه، ونحل له جسمه، وقرر الأطباء أنه لا أمل في شفائه فأدخل إلى حجرة الميئوس من شفائهم وكانوا يسمونها غرفة عزرائيل[٢]، ثم أفاق هذا الرجل من إغماءته ونظر حوله فإذا به يرى أناسًا يلفظون أنفاسهم الأخيرة وآخرون قد لفظوا، فقام من مكانه وتحامل على نفسه وفتح باب الغرفة، ومشى حتى وصل إلى حنفية ماء، وفتحها ووضع رأسه تحتها، وجاء المشرفون على علاجه فذهلوا وقالوا من هذا؟ أهو ذلك الذي يئسنا من حياته؟ ولم تمض أيام حتى تماثل للشفاء، وعاد إلى ميدان القتال، وانتهت الحرب العالمية الأولى وجاءت الحرب العالمية الثانية وسقطت دول وقامت دول والرجل الذي يئس الأطباء من شفائه لا يزال حيًا يُرزق وتزوج وصار لديه أولاد وبنات وعمر وثمر.

---

(١) «أسباب منسية» للدكتور خالد الجبير، محاضرة مسجلة.

(٢) لم يرد هذا الاسم في القرآن والسنة وإنما في بعض الآثار والأولى أن يسمى بما سماه به الله ورسوله فيقال ملك الموت.

ورجل آخر حفر له أهله قبره لأنهم رأوه في النزع الأخير وظنوا أنه مفارق بين ساعة وساعة أخرى، ولكن الرجل طال رقاده، ودفن في القبر غيره، وقام من مرضه وتزوج وأنجب وسار في جنازة كثير من الذين حفروا قبره ليدفنوه إذ ظنوا أن ساعته قد حضرت وعندما كان يذهب إلى القبور كان ينظر إلى ذلك القبر الذي حفر له فصار لغيره.

وهذا مريض اشتد به مرضه ويئس منه الأطباء، فتوجه إلى ربه وخالقه، وقال: يا ربّ ليس لي رجاء إلا فيك، ثم طلب من الطبيب أن يرفع عنه هذه الخراطيم الذي تمده بالغذاء، وتأخذ عنه ما يخرج منه، ويستجيب الطبيب، فقد يئس من الشفاء، ولم يبق إلا ساعات ويفارق الحياة، وكم كان عجب الطبيب عندما رأى مريضه في الغد يتماثل للشفاء وبقي الطبيب يزور مريضه العجوز لينظر إلى آية من آيات الله وصدق ربنا إذ يقول ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨).

كتاب كتبه الله سبحانه لا يأتي قبل وقته ولن يجاوز الأجل حده[1]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

قلت: وسمعت أحد العلماء حفظه الله يقول: كان رجل من الأثرياء له ابنه وهو في عمر الشباب قد أصيب بأمراض بحث عن علاجها في الشرق والغرب ولم يجد يقول الشيخ: فإذا به يدخل عليّ المسجد ذات يوم فقال لي: ابني هذا مريض نحل جسمه كما ترى واشتد هزاله وضعفه ولا أجد له علاجًا فهل عندك من دواء؟ قلت: بالتأكيد عندي علاج فسُرَّ الرجل وقال ما هو؟ فقلت: بشرط أن تنفذ ما آمرك به فوافق فقلت:

---

(١) «جوله في رياض العلماء» (٢١-٢٢)، للدكتور عمر سليمان الأشقر.

أولًا يصلي الخمس صلوات في جماعة خاصة الفجر. ثانيًا: يصوم كل اثنين وخميس. ثالثًا: يقرأ كل يوم جزءًا من القرآن وإن فاته قراءة يوم يقرأ في اليوم التالي جزأين. رابعًا: الإكثار من ذكر الله والاستغفار والدعاء كل يوم وذهب وائتني بعد شهرين قال وبعد أن نسيت ذلك أو كدت أنساه إذ بالرجل يدخل عليَّ وإذا به يصطحب شابًا تلوح نضارة الشباب في وجهه وإذا به يمازحني ويحادثني فقلت لأبيه: أهذا ابنك المريض؟! قال: نعم قد شفاه الله والحمد لله تعالى. قال الشيخ: فوالله ما عرفته إلا من أبيه من تحسن حاله فالحمد لله.